

أرشيف أحلام الحي

حمادة حامد محمود نور الدين

في مخزن البلدية، تحت الأرض بثلاث درجات سلم مكسورة، كان في تسع تربيزات مليانة ورق، وورق، وورق. وكان المفروض إن سعيد عبد الحفيظ، موظف الأرشيف الوحيد اللي فضل، يحرقهم كلهم قبل آخر الشهر، عشان المخزن هيتهدم ويتبني مكانه جراج.

سعيد ماكانش بيحب شغلته، بس كان بيحب هدوء المخزن. عشرين سنة وسط ورق لا بيسأل ولا بيزعق. كان اتخرج في كلية الآداب، قسم تاريخ، وكان نفسه يبقى مدرّس، ودخل مسابقة التربية والتعليم تلات مرات واترفض تلات مرات، وفي المرة الرابعة جاله التعيين في أرشيف البلدية. قال لأمه يومها: «هقعد سنة بس لحد ما أظبط حالي.» السنة بقت عشرين. جوزته سابته بعد سبع سنين لأنه، على حد قولها، «عايش مع الورق أحسن ما بيعيش مع البشر.» ماعندهوش ولاد. عنده رفوف، ومواعيد غداء دقيقة، وقفشة مع فرّاش البلدية عن مصر القديمة، وكلمة «بكرة» اللي كان بيقولها لكل حاجة مهمة في حياته.

والحقيقة؟ كان بيحلم قليل جدًا. صحابه زمان كانوا بيحكوا أحلامهم على القهوة، وهو ما كانش عنده حاجة يحكيها. بينام،

يصحى، عتمة بيضة بينهم. كان فاكر إن دي طبيعته، لحد ما الدكتور في مستشفى التأمين قال له مرة: «اللي مش بيحلم، مش بينام كويس. انت مش نايم كويس من زمان يا أستاذ سعيد.» التعليمات وصلته في مذكرة من سطر واحد: «يُتلف محتوى المخزن بالكامل قبل ٣٠ من الشهر الجاري، ويُرفع محضر بذلك.»

في اليوم الأول كان بيحرق في صمت. قيود مواليد ١٩٥٤. محاضر مخالفات بناء ١٩٦٧. جوابات شكاوى ما حدش ردّ عليها. كان بيطلع كل أسبوع بشوال ورق على سور الجنينة الخلفية، يولّع فيه، ويرجع. النار كانت بتاكل الورق بسرعة محترمة، زي موظف خلص شغله بدري. وفي اليوم التاني، وهو بيحرق شكاوي السبعينات، وقفته ورقة غريبة: شكوى من واحد اسمه لطفي القطّان، سنة ١٩٦٣، ضد قرار نقله من مأمورية «جمع الأحلام الشعبية» إلى قسم المخازن. كاتب فيها بخط حاد: «أنقلوني زي ما انتوا عايزين، بس الصناديق متتلمش. الصناديق دي ملك أصحابها.» سعيد رمى الشكوى في النار وهو مش منتبه إنها أول خيط.

وفي اليوم التالت، ورا تربيزة مقلوبة في أعمق ركن، لقى الصناديق. اتناشر صندوق. جوّاهم ظروف صغيرة صفرا، مرتبة بالحروف، وعلى كل ظرف اسم من أسماء أهل الحي، وتحته سطر: «الحلم المُتكرر، بخط صاحبه.»

سعيد قعد على الأرض. فتح ظرف الحاج عبده الفرّان، اللي عنده فرن البلد من خمسين سنة. جواه ورقة واحدة، بخط راجل عجوز مهزوز: «بحلم كل ليلة إني غرقان في عجينة. بغرق فيها ونفسي طويل.» سعيد افتكر إن الحاج عبده طول عمره ما بيقربش حمام سباحة ولا بيركب مركب، والناس بتضحك عليه. حد كاتب حلمه سنة ١٩٦٢، والراجل عايش بقواعد الحلم ده لحد النهارده.

قعد جنب الصناديق ساعة كاملة مش قادر يفتح حاجة. الأرشيفي ابن الأرشيفي بيفهم قدسية الورق أحسن من أي حد: الورق اللي متكتبش عشانك، مش بتقراه. بس اللي قلّب الموازين إنه افتكر جواب مذكرة الإتلاف: «يُتلف محتوى المخزن بالكامل.» يعني بعد أسبوع، الورق ده مش هيبقى موجود أصلًا، ومحدش هيعرف إنه كان موجود. القراية قبل الإعدام مش سرقة، قال لنفسه، دي شهادة.

فتح ظرف تاني. ست عبير، مدرّسة التربية الدينية المتقاعدة: «بحلم إني بصلي في مسجد من زجاج والناس كلها بتبصلي.» المعلم حسان، صاحب أقدم محل حلاقة في الحي، مكتوب: «بحلم إن المقصات اللي في درجي بتقص لوحدها بالليل، وبصحى ألاقي شعري قصير.» سعيد افتكر إن المعلم حسان بيحلق الزباين في نومه الفعلي؛ مرات كتير وهو قاعد على الكرسي عينيه بتغمض وإيده بتفضل شغالة. رجل الدكاكين بيحلموا بالفلوس بتطير. أم حسن القهوجية: «بحلم إن جوزي رجع من الغربة وقاعد على القهوة وشال الطاقية وشعره أبيض.» جوزها ما رجعش. مات في ليبيا سنة ٧٨، والورقة اتكتبت قبلها بستاشر سنة.

سعيد حس بعرق بارد على ضهره. مين اللي جمع الأحلام دي؟ ولقى الإجابة مكتوبة على ورقة مسمّرة جوّه أول صندوق:

«أرشيف الأحلام. مأمورية جمع الأحلام الشعبية، وزارة الثقافة، ١٩٦٢. التعليمات: يُكتب الحلم بخط صاحبه، ويُحفظ باسمه. كل صاحب حلم له الحق يطلب حلمه في أي وقت. ممنوع منعًا باتًا قراءة حلم إنك مش صاحبه. المأمور: أ. لطفي القطّان.»

سعيد قري التحذير، وبعدين قعد يقرا أحلام الناس لمدة أربع ساعات.

مش عشان فضول، هيقنع نفسه بعدين. عشان الأحلام دي كانت أصدق حاجة قريها في حياته. محدش في الورق بيكدب. المعلم صابر اللي الناس شايفاه أسد، حلمه المتكرر إنه نسي لبسه في الشارع. والست أم الخير اللي بتدي كل حد، حلمها إنها بتسرق رغيف ومبسوطة. كل ظرف كان بيت صغير مفتوح، وسعيد واقف في وسطها بيتفرج.

وبعدين لقى ظرف أمه.

أمه ماتت من تمن سنين. الظرف عليه اسمها بخط القطّان، وجواه ورقة واحدة. إيد سعيد وقفت فوقه دقيقة كاملة قبل ما يفتحه. أمه اللي عمرها ما حكتله حلم واحد، كتبت سنة ١٩٦٢، وهي عروسة في العشرين: «بحلم إن ابني اللي لسه مجاش هيلاقي صناديق فيها أسرار الناس، وهيبقى قدامه اختيار إما يحرقها إما يحفظها. وفي الحلم بشوفه بيختار صح، وصحيت مبسوطة.»

سعيد قعد على أرض المخزن الباردة وبكى زي ما مبكاش يوم ماتت.

مش عشان الحلم صدق. عشان أمّه كانت بتتكلم معاه من ورقة عمرها أربعة وستين سنة، وعرفت إن في يوم هيبقى محتاج حد يقوله «اختار صح» من غير ما يقوله يختار إيه.

في الليالي التالية بقى ينزل المخزن بعد ما البلدية تقفل، بمفتاحه اللي محدش فاكر إنه معاه، ويقرا. كل ظرف كان بيفتحله بيت من بيوت الحي. عرف إن عريس الليلة، ابن الكبير، بيحلم من عشرين سنة إنه طيار، وإنه لسه كل ما طيارة تعدي في السما يرفع راسه لحد ما رقبته توجعه. وعرف إن الست مدام إنعام، أغنى ست في الحي، حلمها المتكرر إنها راجعة بنت صغيرة بتسرق توت من شجرة جيرانها، وإنها «في الحلم بس، بحس إني غنية.»

سأل عن لطفي القطّان في الحي. الراجل مات سنة ١٩٧٤، بس بنته، دكتورة سوسن اللي في العيادة، افتكرته: «أبويا كان شغلته يمشي في البيوت يسأل الناس بتحلم بإيه. الناس كانت بتستخبى منه في

الأول، وبعدين بقت تستناه. كان بيقول إن البلد اللي محدش فيها بيسأل عن الأحلام، بلد بينام غفلة ويصحى غفلة.»

في آخر الصندوق الأخير، لقى سعيد ظرف واحد مكتوب عليه اسمه هو. مش بخط القطّان. بخطه هو.

فتحه وإيده بترتعش. الورقة فاضية، إلا من سطر واحد في نصها، بخط القطّان المائل:

«اللي بيقرا الورقة دي: حلمك مش هنا. حلمك في اللي هتعمله بالصناديق دي بكرة الصبح.»

بكرة الصبح كان يوم الإتلاف.

سعيد ما نامش الليلة دي. قعد على سريره يفكّر في المحضر اللي هيكتبه بكرة، وفي النار، وفي أمّه العروسة اللي شافته قبل ما يجي. وفي الآخر نام من كتر التفكير، وحلم. أول حلم يحلمه من سنين: حلم إنه واقف في المخزن، والصناديق الاتناشر مفتوحة، ومن كل ظرف طالع نور خفيف زي بخار الشاي، والنور طالع لفوق، من الشق اللي في سقف المخزن، رايح في سما الحي، يروّح

لأصحابه نايمين. وصحي وهو مبسوط بطريقة مش فاهمها، وبصوت أمّه في ودنه: «اختار صح.»

وتاني يوم، الساعة تسعة وخمس دقايق، دخل مكتب رئيس الحي بمحضر الإتلاف مكتوب ومخلّص، فيه إن محتوى المخزن اتلف بالكامل، ومعلّم على المربّع بإمضائه هو. والصناديق الاتناشر كانت وقتها في عربية نصف نقل واقفة ورا البلدية، متغطية بشوالات بطاطس، رايحة على أوضة فوق سطح بيته.

رفع المحضر، واستقال بعدها بأسبوعين، وفتح مكتبة صغيرة في شارع سيدي، اسمها «أرشيف».

واللي يدخل المكتبة دي لحد النهارده، هيلاقي ورا الكونتر اتناشر صندوق خشب قديم، ودفتر جديد مفتوح، وسعيد بيسأل الزباين سؤال واحد بس قبل ما يبيعلهم أي كتاب:

«بتتحلم بإيه؟ اكتبهولي بإيدك، وخده هدية.»

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app